# إشراقات

## مفهوم «الإنحاء» (Grammaticalization[1])

أ.د. منتصر أمين عبد الرحيم[2]

يشير «الإنحاء» إلى تحوّل المفردة من المعجميّة إلى النَّحويّة، ويشير أيضًا إلى تحوّل المفردة من درجة نحويّة معينة إلى درجة أعلى؛ ومن ثمَّ تمَّ تفريع المفهوم إلى صِنفين هما: «الإنحاء الرَّئيسيّ Primary Grammaticalization» وهو التَّغيُّر من عنصر معجميّ إلى عنصر نحويّ، و«الإنحاء الثَّانويّ Secondary Grammaticalization» وهو التَّغيُّر من عنصر نحويّ إلى عنصر أكثر نحويّة، وهذا هو التَّقسيم الَّذي أفادته تروجت Elizabeth C. Traugott (سنة 2002)[3] من التَّعريف الشَّهير الَّذي قدّمه كوريولفتز Jerzy Kurylowicz (سنة 1965) للإنحاء ومؤداه أنَّه «تغيُّر مرحليّ تدريجيّ تكتسي به الوحدات المعجميّة والتَّراكيب اللُّغويّة وظائف نحويّة، وبه أيضًا تصير الصّيغ الأقل نحويّة أكثر نحويّة»[4]، وقد تبنى هذا التَّقسيم عدة باحثين منهم موريل نورد Muriel Norde (سنة 2012)[5]. إنَّ «الإنحاء Grammaticalization» بصفته إطارًا بحثيًّا أولًا يشير إلى جانب من دراسة تغيّر اللُّغة غايته تفسير كيفية أداء العناصر المعجميّة أو البنى التَّركيبيّة لوظائف نحويّة في سياقات لُغويّة معينة، وتعليل الكيفيّة الَّتي تتطوَّر بها العناصر النَّحويّة تطوّرًا يمنحها الوسيلة لأداء وظائف نحويّة جديدة، أمَّا بصفته مصطلحًا على ظاهرة لُغويّة ثانيًا

---

[1]- مستخلص من بحث : "الإنحاء ومكانة التغيّر اللغوي في المعجم التاريخي للغة العربية" شارك به الباحث في كتاب: "المعجم التاريخي للغة العربية رؤى وملامح"، إعداد وتنسيق: منتصر أمين عبد الرحيم، خالد اليعبودي، مركز الملك عبد الله لخدمة اللغة العربية، الطبعة الأولى، 2016. ص ص: 197-238. انظر ص ص:199-202.

[2]- باحث في اللسانيات والمعجميات، جامعة الطائف، المملكة العربية السعودية

3) see Elizabeth C. Traugott 2002: From Etymology to Historical Pragmatics. p.26f. in D. Minkofa & R. Stockwell (Eds): Studies in the History of the English Language. Berlin: Mouton de Gruyter.

4) Jerzy Kurylowicz 1975: Esquisses Linguistiques. II. (1965: The Evolution of Grammatical Categories) p.52. Munich: Wilhelm Fink.

5) Muriel Norde 2012: Lehmann's Parameters Revisited. p.73. in Kristin Davidse, Tine Breban & Lieselotte Brems (Eds.): Grammaticalization and Language Change: New Reflections. Amsterdam/Philadelphia: John Benjamins.

فإنّه يشير إلى الخطوات الّتي تتبعها عناصر محددة كي تصير أكثر نحويّة[6]، وإذا كان الإنحاء مرتبطًا بنحويّة العناصر فإنّ دراسته تنطوي - كما سنرى في ثنايا البحث - على مقاربة عدة أصناف من التّغيّرات الصّوتيّة والصّرفيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة، وهو مصطلح فرنسيّ الأصل (Grammaticalisation)[7] يعود إلى بحث أنطوان مايه Antoine Meillet سنة 1912 الّذي عنّاه «تطوّر الأشكال النّحويّة L'évolution des formes grammaticales»، والثّابت أنّ «مايه» لم يقدّم تعريفًا لهذا المصطلح إنّما اكتفى فقط بوضعه بين مزدوجين، لكنّ دلالته على منح كلمة مستقلة سِمة نحويّة[8] كانت واضحة في بحثه.

وفي سبيل التّأريخ لأُس هذا المصطلح، هناك مَن يرى أنّ المفهوم أو الفكرة الأساسيّة الّتي يقوم عليها المصطلح تعود إلى فترة أقدم من تاريخ ظهوره لدى «مايه»، وهناك مَن يرى أنّه ظهر في الصّين في القرن العاشر الميلاديّ، ومنهم مَن ينسبه إلى اليونانيّين، كذلك نهضت عدة دراسات تستتبع هذا المفهوم في الدّرس اللّسانيّ الغربيّ السّابق على ظهور المصطلح في فرنسا. أمّا عن التّراث النّحويّ العربيّ فيرى كرستيان ليمان Christian Lehmaan أنّه على الرّغم من تعامل النّحو العربيّ مع التصّريف وبناء الكلمات فإنّ بحثه – كما أكد جوناثان أونز Jonathan Owens- كان درسًا آنيًا؛ وبالتّالي لم يحرز تطوّرًا فيما يتعلق بالإنحاء[9]، ومن اللّافت أنّ «ليمان» يستشهد -في الوقت نفسه- بنص اقتبسه جدعون جولدنبرج Gideon Goldenberg عن «الزّجاجيّ» (في كتابه الإيضاح) رأى فيه «ليمان» دليلًا على نظريّة غير مكتملة في النّحو العربيّ حول «الإنحاء»، يقول «الزّجاجيّ»: «إنّ الفعل لما كان لا يخلو من الفاعل ولا يستغني عنه ضرورة، ثمّ اتصل به مُضمر صار كبعض حروفه، وصارت الجملة كلمة واحدة»[10]. ويرى «ليمان» أنّ اللّسانيّات

---

6) see Pull J. Hopper & Elizabeth C. Traugott 2003: Grammaticalization. 2nd ed. p.1-2. Cambridge: Cambridge University Press.

7) see Antoine Meillet (Ed.) 1948: Linguistique historique et linguistique générale. Tome I, (1912: L'évolution des formes grammaticales) p.133. Paris: Champion.

8) see Christian Lehmaan 2015: Thoughts on Grammaticalization. 3rd Ed. Berlin: Language Science Press. p.5.

9) Christian Lehmaan 2011: Grammaticalization of Semitic Case Relators. Aula Orientalis (29): 9-26. http://christianlehmann.eu/publ/gr-n_semitic_case.pdf. p.1.

10) الزّجاجيّ (أبو القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق ت 337هـ): الإيضاح في عِلل النّحو، تحقيق مازن المبارك، بيروت: دار النّفائس، الطّبعة الثّالثة، ص75. وقد جاء هذا القول في معرض حديث الزّجاجيّ عن حكم إعراب الأفعال (الأمثال) الخمسة بالحروف، يقول: «فإنْ قال قائل: فلمَ جاز أنْ يجيء إعراب الفعل المستقبل بعد

السّاميّة الغربيّة لم تتأخر كثيرًا في إدراك مفهوم الإنحاء، ودللّ على هذا بكتاب «كارل بروكلمان» «الأساس في النّحو المقارن للّغات السّاميّة Grundriß der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen» الصّادر سنة 1908م حيث كان مفهوم الإنحاء حاضرًا في مقاربة «بروكلمان»، بل يذهب «ليمان» أبعد من هذا، فيرى أنّ معالجة «بروكلمان» لحروف الجر افترضت ما يطلق عليه الآن مسارًا إنحائيًّا يتكون من أربع مراحل، وأنّه استعمل في وصف هذه المراحل مفاهيم وصفيّة أساسيّة هي: فقد المحتوى الدّلاليّ (من المرحلة الأولى إلى الثّانية)، و«التّحجر fossilization» (من المرحلة الثّانية إلى الثّالثة)، والتّقلص إلى وظيفة نحويّة خالصة (في المرحلة من الثّالثة إلى الرّابعة)، أمّا الأسماء الّتي تمثّل المرحلة الأولى فهي عادة ما تكون دالة على أعضاء جسم الإنسان[11]. ولقد شغلت دراسة الإنحاء في اللّغات السّاميّة لاسيما الأكاديّة والعبريّة عددًا غير قليل من الباحثين المعاصرين أمثال «جيفون» Talmy Givon 1991، و«روبا» Jo. Rubba 1994، و«سيمون-سنل» Marie-Claude Simeone-Senelle و«فانهوف» Martine Vanhove 1997، و«كوفنبرج» N. J. C. Kouwenberg 1997، و«فوجت» Rainer Voigt 1999، وتوزعت اهتمامات هذه الدّراسات على موضوعات منها: الأفعال النّاقصة، وحروف الجر، والمصدر، والأسماء الموصولة، وتضعيف بعض الأفعال[12]. فهذه الدّراسات الّتي تهتم ببحث الإنحاء في اللّغات السّاميّة تؤكد من ناحية فاعليّة الإنحاء في فهم الأنظمة النّحويّة لمثل هذه اللّغات، وهذا له كبير الأثر في إدراك كيفية تطوّر النّظام النّحويّ في العربيّة: ذلك أنّ مقاربة عملية الإنحاء في عدد من المجالات النّحويّة المختلفة وكذا في عدد من اللّغات المتنوعة تفترض أنّ «العموميّات الحقيقيّة للّغة هي عموميّات التّغيّر، وأنّ هذه العموميّات يمكن النّظر إليها على أنّها تمثّل مسارات من التّغيّر، وأنّنا في سبيل فهم النّحو والقواعد بصورة تامة أنْ ننظر من خلال هذه المسارات إلى الآليّات الفعليّة المسببة للتّغيّر عندها نحاول فهم هذه الآليّات

---

الفاعل في قولك: الزّيدان يقومان، والزّيدون يقومون، وما أشبه ذلك؟ فقد جاءت علامة رفع الفعل بعد الفاعل وهي ثبات النّون، وكذلك النّصب والجزم، لأنّهما بحذف النّون، وهي بعد الفاعل. أفيجوز أنْ يكون إعراب شيء موجودًا في غيره وكون ذلك الشّيء معربًا؟ قيل له: إنّ الفعل لما كان لا يخلو من الفاعل ولا يستغني عنه ضرورة، ثمّ اتصل به مُضمر صار كبعض حروفه، وصارت الجملة كلمة واحدة؛ فجاز لذلك وقوع الإعراب بعد ضمير الفاعل لما صارت الكلمة كلمة واحدة، والدّليل على ذلك إسكان لام الفعل في قولك: فعلْت، أسكنت اللّام لئلا تتوالى في كلمة واحدة أربع متحركات».

11) adapted from Christian Lehmaan 2011: op. cit., p.2.

12) see Aaron David Rubin 2004: Studies in Semitic Grammaticalization. p.10. PhD Thesis. Harvard University.

عبر سيرورات تفاعليّة ومعرفيّة أساسيّة، فإذا نجحنا في هذا بدأنا فهم كيف تبني اللُّغة قواعدها»[13]. كذلك أعتقد أنَّ هذه الدِّراسات من ناحية أُخرى يمكن أنْ تضع أيدي صناع المعجم التَّاريخيّ على معلومات مهمة حول المداخل (النَّحويّة أو المعجميّة الَّتي تطوّرت عنها وفق عمليات الإنحاء المختلفة) وحول توزيعها (كمداخل رئيسة أو فرعيّة) وحول تعريفها أيضًا، فدراسات اللُّغات العرُوبيّة (السّاميّة الحاميّة) من المصادر المهمة بالنّسبة إلى المعجم التَّاريخيّ للُّغة العربيّة[14].

وما أود الإشارة إليه هنا أنَّ مفهوم الإنحاء كان حاضرًا لدى النُّحاة العرب؛ وعليه فإنَّ حديث «ليمان» السّابق عن أنَّ النَّحو العربيّ لم يستطع الإمساك بمفهوم الإنحاء يحتاج في سبيل تأكيده أو تفنيده إلى مزيد من البحث والتَّقصي، فإذا كان «بروكلمان» في مقاربته المقارنة لأنحاء اللُّغات السَّاميّة قد فطن إلى مفهوم الإنحاء وغاب عنه مصطلحه كما صرّح بذلك «ليمان»، فإنَّ «أبا حيَّان الأندلسيّ» في محاولته الرَّائدة تطبيق القواعد النَّحويّة العربيّة على اللُّغة التُّركيّة[15] (الَّتي لم تخل من مواضع عديدة قارن فيها بين اللُّغتين) لم يغب عنه أيضًا مفهوم الإنحاء وإنْ لم يسمِّه شأنه في هذا شأن «بروكلمان».

---

13) adapted from Joan Bybee 2003: Cognitive Processes in Grammaticalization. P.151. In M. Tomasello (Ed.): The New Psychology of Language. Vol.2. New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates Inc. 145-167.

14) انظر د. علي القاسمي 2014: صناعة المعجم التاريخي للغة العربية، دار ناشرون، لبنان، ص293.

15) see C. H. M. Versteegh 2006: Arabic Linguistics Tradition. p.438. in K. Brown (Ed.): Encyclopedia of Language and Linguistics. Vol.1: 434-40. Amsterdam: Elsevier.